بسم الله الرحمن الرحيم

السَّفَرُ عِبَادَةٌ وَتَفَكُّرٌ

الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ القُرْآنَ كِتَابًا مَسْطُورًا، وَخَلَقَ الكَوْنَ كِتَابًا مَنْظُورًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَسِيرُوا فِي الأَرْضِ بِقُلُوبٍ مُتَفَكِّرَةٍ، وَأَبْصَارٍ مُتَدَبِّرَةٍ؛ فَإِنَّ فِي الأَسْفَارِ مَا يُوقِظُ فِي النَّفْسِ مَعَانِيَ الإِيمَانِ، وَيَكْشِفُ لِلْعَبْدِ مِنْ بَدِيعِ صُنْعِ اللهِ وَعَظِيمِ تَدْبِيرِهِ مَا يَزِيدُهُ يَقِينًا وَتَسْلِيمًا.

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ:

إِنَّ السَّفَرَ مِنَ المَحَطَّاتِ الَّتِي تَتَّسِعُ فِيهَا رُؤْيَةُ الإِنْسَانِ لِلْحَيَاةِ، وَتَتَجَدَّدُ فِيهَا مَعَانِي التَّأَمُّلِ وَالاعْتِبَارِ؛ فَفِي الطَّرِيقِ يَرَى مِن اخْتِلافِ الخَلْقِ، وَتَبَدُّلِ الأَحْوَالِ، وَاتِّسَاعِ الأَرْضِ، مَا يُوقِظُ القَلْبَ وَيَزِيدُهُ تَعَلُّقًا بِاللهِ، وَلِذَلِكَ أَحَاطَ الإِسْلامُ السَّفَرَ بِعِنَايَةٍ عَظِيمَةٍ، فَجَعَلَ لِلْمُسَافِرِ مِنَ الأَذْكَارِ وَالآدَابِ مَا يُبْقِي قَلْبَهُ مَوْصُولًا بِاللهِ وَهُوَ يَعْبُرُ الطُّرُقَ وَيَقْطَعُ المَسَافَاتِ، فَشَرَعَ لَهُ أَنْ يَسْتَوْدِعَ أَهْلَهُ رَبَّهُ، فَيَقُولَ: «أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ الَّذِي لا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ»، وَشَرَعَ لَهُ مِنَ الدُّعَاءِ مَا يَمْلَأُ الطَّرِيقَ سَكِينَةً وَتَوَكُّلًا، فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى...». ثُمَّ جَاءَتْ رُخَصُ الشَّرِيعَةِ تَخْفِيفًا وَرَحْمَةً، فَقُصِرَتْ لَهُ الصَّلاةُ، وَجُمِعَ لَهُ بَيْنَ الصَّلاتَيْنِ، وَأُبِيحَ لَهُ الفِطْرُ عِنْدَ المَشَقَّةِ، لِيَبْقَى السَّفَرُ طَرِيقًا تُحْفَظُ فِيهِ العِبَادَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ فِيهِ الصِّلَةُ بِاللهِ. وَزَادَ الإِسْلامُ المُسَافِرَ تَكْرِيمًا حِينَ جَعَلَ دَعْوَتَهُ مِنَ الدَّعَوَاتِ المُسْتَجَابَةِ، فَقَالَ ﷺ: ((ثَلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ))، وَفِي هَذَا كُلِّهِ تَتَجَلَّى عَظَمَةُ هَذَا الدِّينِ؛ إِذْ لَمْ يَتْرُكِ الإِنْسَانَ فِي سَفَرِهِ لِلْوَحْشَةِ وَالانْقِطَاعِ، بَلْ جَعَلَهُ فِي مَعِيَّةِ الذِّكْرِ، وَظِلالِ الرَّحْمَةِ، وَقُرْبِ الصِّلَةِ بِاللهِ تَعَالَى، حَتَّى يَغْدُوَ السَّفَرُ لِلْمُؤْمِنِ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الإِيمَانِ، وَزَادًا لِلتَّفَكُّرِ وَالاعْتِبَارِ.

إِخْوَةَ الإِيمَانِ:

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالسَّيْرِ فِي الأَرْضِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الخَلْقِ، فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[1]، وَأَجْمَلُ الأَسْفَارِ مَا أَيْقَظَ القَلْبَ، وَحَرَّكَ فِي النَّفْسِ مَعَانِيَ التَّأَمُّلِ وَالاعْتِبَارِ؛ فَفِي امْتِدَادِ الطُّرُقِ، وَتَعَاقُبِ المَشَاهِدِ، وَاخْتِلافِ الآفَاقِ، تَنْكَشِفُ لِلإِنْسَانِ صَفَحَاتٌ مِنْ عَظَمَةِ اللهِ لا يَقْرَؤُهَا بِعَيْنِهِ وَحْدَهَا، بَلْ يَقْرَؤُهَا بِقَلْبِهِ وَرُوحِهِ، يَمْضِي بَيْنَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ، وَالبِحَارِ الجَارِيَاتِ، وَالسُّهُولِ المُمتَدَّةِ، فَيَرَى كَوْنًا مُتَّسِعًا يَنْتَظِمُ بِأَمْرِ اللهِ، وَجَمَالًا مُتَنَوِّعًا يَشْهَدُ بِبَدِيعِ صُنْعِهِ، وَسُنَنًا مُحْكَمَةً تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ حِكْمَتِهِ، فَيَشْعُرُ أَنَّ كُلَّ طَرِيقٍ يَسْلُكُهُ يَقُودُهُ إِلَى مَعْرِفَةٍ أَعْمَقَ بِاللهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَشْهَدٍ يَمُرُّ بِهِ يَفْتَحُ فِي قَلْبِهِ بَابًا جَدِيدًا مِنَ التَّعْظِيمِ وَالإِجْلالِ، مَعَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ وَالعِنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ بِالخَلْقِ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ، وَأَمَّا اخْتِلافُ الأَلْسِنَةِ فَعَجَبٌ مِنَ العَجَبِ؛ فَكَمْ مِنْ لُغَةٍ أَجْرَاهَا اللهُ عَلَى بَنِي الإِنْسَانِ، وَكَمْ جَعَلَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ البَيَانِ، وَهُوَ مَعَ ذَا يَعْلَمُ نُطْقَ كُلِّ نَاطِقٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَكَذَا اخْتِلافُ الأَلْوَانِ مَعَ أَنَّ الكُلَّ لآدَمَ وَحَوَّاءَ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَبْدَعَ فَأَمْتَعَ، وَتَبَارَكَ الَّذِي قَالَ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[2]. وَمِنَ التَّفَكُّرِ فِي الأَسْفَارِ أَيْضًا: النَّظَرُ وَالاعْتِبَارُ بِمَآلِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ وَعَاقِبَتِهِمْ عِنْدَ المُرُورِ بِدِيَارِ الغَابِرِينَ وَمُشَاهَدَةِ آثَارِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَقْصَدٌ قُرْآنِيٌّ وَمَطْلَبٌ رَبَّانِيٌّ، قَالَ رَبُّنَا: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾[3]، وَيَقُولُ تَارَةً أُخْرَى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[4]، كَذَلِكَ أَيُّهَا الأَحِبَّةُ الكِرَامُ، فَإِنَّ رُؤْيَةَ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي بَثَّهَا فِي الكَوْنِ مِنْ أَعْظَمِ مَجَالَاتِ التَّفَكُّرِ لِلْمُسَافِرِ، فَلْيَنْظُرِ المُسَافِرُ كَيْفَ سَخَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِلإِنْسَانِ وَسَائِلَ النَّقْلِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَكَيْفَ صَارَتِ المَسَافَاتُ تُطْوَى طَيًّا مَعَ اشْتِمَالِ ذَلِكَ عَلَى الرَّاحَةِ وَالأَمَانِ وَالرَّفَاهِيَةِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللهِ-، وَاجْعَلُوا مِنْ أَسْفَارِكُمْ مَطِيَّةً إِلَى زِيَادَةِ إِيمَانِكُمْ وَتَقَرُّبًا إِلَى رَبِّكُمْ، وَاحْذَرُوا أَسْفَارَ الحَرَامِ الَّتِي تَنْقَلِبُ حَسْرَةً وَنَدَمًا.

---

(١) العنكبوت: ٢٠
(٢) الروم: ٢٢
(٣) محمد: ١٠
(٤) النمل: ٥٢

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الكَرِيمُ.

*** *** ***

الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الأَخْلاقَ زِينَةً لِلإِنْسَانِ فِي إِقَامَتِهِ وَتَرْحَالِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ أَدَبًا، وَأَعْظَمَهُمْ خُلُقًا، فِي حَضَرِهِ وَسَفَرِهِ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللهِ:

إِنَّ السَّفَرَ يَكْشِفُ مِنْ أَخْلاقِ الإِنْسَانِ مَا قَدْ تُخْفِيهِ أَيَّامُ الإِقَامَةِ؛ فَفِي الطَّرِيقِ تَظْهَرُ مَعَادِنُ النُّفُوسِ، وَيَتَبَيَّنُ صَبْرُهَا وَحِلْمُهَا، وَيُعْرَفُ حُسْنُ تَعَامُلِهَا عِنْدَ التَّعَبِ وَالمَشَقَّةِ وَتَغَيُّرِ الأَحْوَالِ، وَلِذَلِكَ كَانَ المُؤْمِنُ يَحْمِلُ أَخْلاقَهُ مَعَهُ أَيْنَمَا حَلَّ وَارْتَحَلَ، فَيَبْقَى عَلَى سَمْتِهِ، وَحُسْنِ أَدَبِهِ، وَرِفْقِهِ بِالنَّاسِ، وَاحْتِرَامِهِ لِحُقُوقِهِمْ؛ لأَنَّ المُسَافِرَ لا يَحْمِلُ أَمْتِعَتَهُ وَحْدَهَا، بَلْ يَحْمِلُ دِينَهُ وَقِيَمَهُ وَصُورَةَ أَخْلاقِهِ، فَكَمْ مِنْ مَوْقِفٍ عَابِرٍ فِي طَرِيقٍ أَوْ مَطَارٍ أَوْ مَجْلِسٍ كَشَفَ عَنْ حُسْنِ تَرْبِيَةٍ وَصِدْقِ إِيمَانٍ، وَكَمْ مِنْ تَصَرُّفٍ يَسِيرٍ تَرَكَ فِي النُّفُوسِ أَثَرًا حَسَنًا أَوْ صُورَةً لا تُنْسَى، وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ وَصَايَا الإِسْلامِ فِي السَّفَرِ جَامِعَةً لِمَحَاسِنِ الأَخْلاقِ، فَأَمَرَتْ بِالرِّفْقِ وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ وَكَفِّ الأَذَى، فَقَالَ ﷺ: ((المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))، وَنَهَى عَنْ إِيذَاءِ النَّاسِ أَوِ التَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ فِي طُرُقِهِمْ وَمَرَافِقِهِمْ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: ((إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ))، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرِهِ مِثَالًا فِي رَحْمَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ، يُعِينُ أَصْحَابَهُ وَيُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَيُشَارِكُهُمْ شَأْنَهُمْ، حَتَّى يَبْقَى السَّفَرُ مَيْدَانًا لِلأَخْلاقِ كَمَا هُوَ طَرِيقٌ لِلانْتِقَالِ.

فَلْيَتَّقِ اللهَ المُسَافِرُ فِي أَخْلاقِهِ، وَلْيَكُنْ سَفِيرًا لِدِينِهِ وَوَطَنِهِ وَقِيَمِهِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ يَنْسَوْنَ كَثِيرًا مِنَ الكَلامِ، لَكِنَّهُمْ لا يَنْسَوْنَ خُلُقًا حَسَنًا، وَلا مَوْقِفًا كَرِيمًا، وَقَدْ قَالَ ﷺ: ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا)).

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى إمَامِ الْمُرْسَلِينَ، مُحَمَّدٍ الهَادِي الأَمِينِ، فَقَدْ أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ حِينَ قَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[1].

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وسَلَّمتَ عَلَى نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وعَنْ جَمْعِنَا هَذَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا، وَلا تَدَعْ فِينَا وَلا مَعَنَا شَقِيًّا وَلا مَحْرُومًا.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ وَاهْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَقِّ، وَاجْمعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الخَيْرِ، وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلامَ وَالأَمْنَ لِعِبادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ كُنْ عَوْنًا للمُسْلِمِينَ والمُسْتَضْعَفِينَ فِي كُلِّ مَكانٍ، وَكُنْ مَعَهُمْ وَثَبِّتْهُمْ وَارْبِطْ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَصَبِّرْهُمْ، وَاخْذُلْ عَدُوَّكَ وَعَدُوَّهُمْ، وَاجْعَلِ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الأَمْرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، ونَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، ونَسْأَلُكَ قُلُوبًا سَلِيمةً، وأَلْسِنةً صَادِقةً، ونَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَنعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزَّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، اللَّهُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِ نِعمَتَكَ، وَأَيِّدْهُ بِنُورِ حِكْمَتِكَ، وَسَدِّدْهُ بِتَوفِيقِكَ، وَاحفَظْهُ بِعَينِ رِعَايَتِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وكُلِّ أَرزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ، المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

(١) الأحزاب: ٥٦